ح١١

الإيضاحات المتعلقة بالمعنى الجملي لآية البسملة

١٠ ـ ما تلهمه آية البسملة للإنسان من معانٍ

الإيضاح العاشر: حول إلهام البسملة، وفيه أمور ثلاثة:

الأمر الأوّل: نبذة عامة عن الإلهام.

إنّ الإلهام هو أن يجد الإنسان معنى في روعه من غير أن يكون قد خوطب به.

والإلهام على نوعين:

١-إلهام يصدر من فاعل عاقل، حيث يوحى إلى الإنسان قصداً بالفكرة على وجه خفي ومن غير أن يحتسب الإنسان، مثل إلهام الملائكة للإنسان.

٢-إلهام يحصل على وجه تلقائي من شيء يجده الإنسان فيستتبع خواطر ودوافع ملائمة له في داخل الإنسان.

وما يلهم الإنسان على وجه تلقائي أمور عديدة:

١-القول، فإنّ النص قد يكون ملهماً للإنسان لمعنى لم يتضمنه، ولكنه يستتبع خواطر ملائمة له في ذهن الإنسان ويتنبه من خلاله إلى ما لم يكن يشعر به لولا قراءته لهذا النص.

٢-العمل والسلوك، فإنّه قد يكون ملهماً، كما إذا أتى شخص أمامك بعمل رائع كأن أخذ بيد الأعمى تطوعاً، فتقول: (إنّ هذا فعل ملهم)، لأنّه يشجعك على

الاقتفاء به على وجه خاص، بل قد يقوي فيك داعي الخير والإحسان إلى الآخرين على وجه عامّ.

٣-الشخصيات، والشخصية هي مجموعة من الخصال التي تتمثل في مجموعة من السلوكيات التي تصدر من الشخص التي تمثل طابعاً خاصاً، وهي قد تكون ملهمة ومؤثرة في الإنسان.

٤-القصص والحكايات والأفلام، فإنّها رغم أنّها تحكي قضايا خاصة وقعت إلّا أنّها تترك في نفس الإنسان آثاراً وتثير في نفسه خواطر ودوافع لم تكن لتحصل لولا مشاهدتها والاطلاع عليها، فالأقوال والأفعال والقصص الصالحة تلهم الإنسان بالتعقل.

٥-البيئات الاجتماعية، وهي تتكون من مجموعة من الشخصيات والسلوكيات، وهي أيضاً ذات تأثيرات ملهمة كبيرة، فهي تلهم الإنسان إلى مناحٍ مناسبة لها وإن لم يوجهه أحد صريحاً إليها.

فهذه أمور ملهمة للإنسان وذلك أمر مشهود، ولعل أيّ واحد منا لا يخلو أن يكون قد مر عليه في حياته الاستلهام من أقوال بليغة أو سلوكيات رائعة أو شخصيات مؤثرة أو قصص سمعها أو بيئة عاش فيها فأثّرت في نفسه وحرّكت خواطره وحفّزت دواعيه، فهو يعتبر تلك الأقوال أو السلوكيات أو الشخصيات أو القصص أو البيئات ملهمة لنفسه.

والإلهام قد يكون إيجابياً وقد يكون سلبياً..

فالإلهام الإيجابي ما يوجب مزيداً من التعقل والحكمة والفضيلة والكمال.

وأما الإلهام السلبي فهو ما يلهم الإنسان بالسلوكيات الانفعالية وتهوّن في نفسه الخطأ والخطيئة، فهي تترك آثاراً سلبية على أفكار الإنسان وخواطره ودوافعه.

وقد يتوقف الإلهام من شيء ـ كالنص والسلوك ـ على الاستلهام بمعنى الغور فيه، ومعايشة أجوائه، واستعداد المتلقي للإلهام.

وتؤثر في الاستلهام مضافاً إلى طبيعة الأمر الملهِم شخصية فاعله، فإنّ مؤهلات الشخصية وقوتها وبروزها مؤثر طبعاً في حدوث الإلهام وقوته، لأنّ القول والفعل يستمدان جزءاً من هويتهما من شخصية الفاعل والقائل، كما أنّهما بدورهما جزء من شخصيته.

هذا، والاستلهام قد يكون سليماً موافقاً مع اتجاه القول والفعل حقاً، وقد يكون خاطئاً وذلك عندما لا يكون موافقاً مع اتجاهه حقاً وإنّما يكون وهماً من المستلهم نشأ عن اتجاهه الداخلي في الحقيقة، ولكنّه يتلقاه خطأً استلهاماً من شيء خارجي كالنص المقدس والشخصية القدسية لإضفاء نوع من الشرعية على ما استلهمه.

وقد يلح الشخص على التأمل في نصٍّ أو شخصية لاستلهام شيء منه في اتجاه يفترضه سلفاً، فتنقدح في ذهنه معانٍ يظنها استلهاماً من النص، ولكنّها خواطر منبثقة من داخله وموافقة مع اتجاهه، ويتفق ذلك غير قليل لبعض الخائضين في الأخلاق والعرفان النظري وفق مناهج غير موثوقة في مبادئها ونتائجها.

وقد يخلط بين حالة الإلهام وحالة التفسير، فيفسّر النص بالمعاني المستلهمة من النص، وهو خطأ، فالمعاني التي يلهمها النص تقع في اتجاه النص وليست مداليل للنص.

فهذا إيجاز عام عن الإلهام.

الأمر الثاني: في إلهام القرآن الكريم.

إنّ القرآن الكريم كتاب ملهم، فهو ـ مضافاً إلى توجيهاته الصريحة والواضحة ـ ذو تأثيرات فكرية وتربوية كبيرة في اتجاه الغاية التي ينظر إليها والمقاصد التي يريد أن يوجّه نحوها من الاتصاف بمزيد من الرشد والعقلانية والفضيلة والحكمة وتجنّب الأوهام والتحلي بالخصال الفاضلة والازدياد من الأعمال الصالحة، والسعي إلى العمل الصالح، ومن الارتقاء بالإنسان إلى استحضار الله تعالى وعظمته واستنطاق الكون والكائنات وحثّ الإنسان على شكره ورعاية الأدب اللائق به ونبذ إيجاد الشركاء له، وإشعاره بودّ الله سبحانه له ورأفته به، وتحذيره عن مغبة مخالفته.

ويكتسب القرآن الكريم هذه القابلية المميزة للإلهام من ثلاثة عوامل وهي: طبيعة مضمونه وأسلوب أدائه وشخصية قائله..

أما العامل الأوّل: ـ وهي طبيعة مضمونه ـ: فلأنّ المعاني التي يتضمنها هي بطبيعتها معانٍ واسعة ذات آفاق رحبة لا نهاية لها، وأخرى غامضة لا يحرز إدراكها، ولذلك يمكن لذهن الإنسان وخواطره وهواجسه أن يذهب فيها كل مذهب إلى المدى الذي يستطيعه ولن يبلغ آخره.

ويتمثل ذلك في كلٍ من مبادئ الدين وحقائقه.

فمبادئ الدين هي التوجيه إلى خصال ثلاث، هي:

١-مزيد من العلم والوعي والتبصر في هذه الحياة حتى يبلغ الإنسان اليقين، فيكون الغائب والآجل لديه حاضراً ومتجسداً.

٢-مزيد من الحكمة في الفكر والسلوك والاختيار الأمثل والأحمد من حيث العواقب.

٣-مزيد من الفضيلة والنبل والرقي.

وينبه القرآن الكريم دوماً على أنّ لكل من هذه المعاني آفاق لا تنتهي حتى للأنبياء (عليهم السلام)، كما قال سبحانه: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[١]، ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾[٢]، وقال سبحانه لرسوله (صلى الله عليه وآله): ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٣]، ﴿**وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا**﴾[٤].

كما أنّ لهذه المعاني مزالق لا يستطيع الإنسان ما دام في هذه الحياة أن يثق بأنّه سوف يتوقاها، وهو أيضاً أمر ينبه عليه القرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ**

---

(١) سورة المجادلة: آية ١١.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٣٢.

(٣) سورة طه: آية ١١٤.

(٤) سورة الكهف: آية ٢٤.

يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[١]، **﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾**[٢]، والمراد بالنفس اللوامة كما قيل هي النفس التي تحاسب تصرفاتها وتلومها على ما تجده من الخطأ أو الخطيئة.

وأما حقائق الدين التي جاءت في الدين من خلال رسل الله تعالى، فهي أيضاً ذات آفاق واسعة لا تدرك نهايتها وأخرى غامضة لا تتضح دقائقها، وهي حقيقتان عظيمتان للغاية: هما وجود الله سبحانه، والنشأة الأخرى للإنسان مضافاً إلى رسالته إلى خلقه ورسوله إليهم.

أما الحقيقة الأولى: ـ وهي وجود الله فإنّ الله سبحانه ـ كما يذكر القرآن الكريم وتشير إليه الفطرة الإنسانية في انطباعها الذي أُلهِمَت به عن الإله ـ يتصف بأقصى الكمالات كلها مِن الحياة والعلم المحيط والقدرة الكاملة والوجود الشامل لكل مكان وإشرافه المحيط بكل شيء حاضر (المعبر عنه بالبصر والسمع).

ولأجل ذلك فإنّه كلما تأمل الإنسان في صفاته سبحانه لم يبلغ مداها.

ثم من آيات وجود الله عز وجل وشواهد صفاته كما يصف القرآن الكريم هو هذا الكون الفسيح، وهو يشهد بعظمته على وجود الله سبحانه وقدرته وإبداعه

---

(١) سورة المؤمنون: آية ٦٠.

(٢) سورة القيامة: آية ١ـ٢.

من السماوات في اتساعها وآفاقها والأرض بمكوناتها من تنوعاتها وبحارها ونباتاتها وحيواناتها ومعادنها.

وهذا الأمر بطبيعته ذو آفاق واسعة للغاية، فعجائب الكون وروائعه وأبعاد الإبداع والتخطيط فيه لا تحصى حقاً، كما نجده عياناً، ولذلك فإنّ الإنسان إذا نفض غبار الاعتياد عما يعتاد عليه منها وانتبه إليها على وجه الاستنطاق لها عن وجود الله تعالى وصفاته من علم وقدرة وإبداع لم يبلغ نهاية ذلك أبداً، بل كلما تعمق فيها وجد فيها مزيداً من الأمور المذهلة.

ثم إنّ مما اشتمل عليه هذا الكون هو الإنسان بما ينطوي عليه من خصال ومؤهلات مميزة من قدرة على التفكير والبيان (اللغة) واتصافه بالضمير ونزوعه إلى الحكمة وحريته في الاختيار وما يتعلق بذلك كله من خصائص دماغه وخلاياه بما يتضمنه كل ذلك من سنن جسدية ونفسية واجتماعية وتاريخية.

وتلك أيضاً صحيفة لا تنتهي كلما تأمل الإنسان فيها وتقدّم العلم في اكتشاف أسرارها.

هذا، ومن أبعاد صفاته سبحانه ما يتعلق بتعامله مع خلقه من رعاية الحكمة البالغة والاتصاف بالقيم الفاضلة من العدل في أدق مقتضياته، والفضل والكرم في أقصى مراتبه، والرحمة في أعلى مستوياتها، والمكافاة والتقدير في أفضل وجوهها، هذا من غير أن يبطل ذلك تقدير كل شيء بحسبه وكل أمر بما يلائمه فلا يتماثل المجاهدون والقاعدون ولا السابقون في الإيمان والمتأخرون ولا الباذلون رغم

الخصاصة والآخرون حتى كان هناك تناسب بين سعي الإنسان ودرجته، فهذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإنّه يتصف بمعاني الحزم والمجازاة للخطيئة، فلا يتساوى المحسن والمسيء ولا يتماثل البصير والأعمى، ولا يقارن العادل بالظالم، هذا من غير أن ينفي ذلك عظيم عفوه وتجاوزه في موضعه.

وهذه المعاني كلها والتي تتعلق بتعامله مع الخلق في هذه الحياة وما بعدها هي ذات آفاق واسعة وأخرى غامضة لا ينفد مفعولها في نفس الإنسان فيما يرجوه ويأمله أو يخافه ويحذره منه سبحانه.

وأما الحقيقة الثانية: فهي وجود حياة أخرى للإنسان ـ كما يصف القرآن الكريم توصيفاً مؤكداً ـ يجد فيها ثمار معرفته وبصيرته وخصاله وأعماله ومساعيه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً، ويكون الناس فيها درجات متفاوتة.

وهذه الحقيقة هي أيضاً ذات آفاق واسعة وأخرى غامضة يمكن أن يذهب فيها الفكر كل مذهب فيما يمكن أن يتفق للإنسان ودرجته فيها..

فمن سعتها أنّها خالدة أبداً.

ومن غموضها اختلاف نظامها عن هذه النشأة حيث تبلو السرائر وتظهر الضمائر، ولا تدع صغيرة ولا كبيرة إلّا تحصيها، وذلك يعطي شعوراً غير محدود بجدية هذه الحياة ونتائجها.

ومن أبعاد هذه الحقيقة أنّ هذه الحياة رأس مال الإنسان وهو يستطيع أن يستثمر منها كل لحظة وكل نعمة، فلا بد له من أن يكون معنياً بنفسه، مستثمراً

لحياته، ساعياً إلى تهذيب خصاله، حذراً من توقفه أو تقهقره، ممحصاً لسلوكياته، متأسياً بمن ضرب الله سبحانه مثلاً له من الأنبياء والصالحين، سائلاً لله تعالى مزيداً من فضله ورحمته.

وهذه المعاني أيضاً كلها ذات آفاق واسعة وأخرى غامضة يذهب فيها الذهن كل مذهب.

فمن سعتها أنّ معاني الكمال في كل منحى لا تحدّ بحدّ، ومراقي الفضل والنبل لا تتوقف في درجة، فالمرء كلما يبذل من نفسه وماله فإنّه يمكن أن يبلغ أعلى منها، وفي الأمثال العليا المضروبة للإنسان من الأنبياء والصالحين ما يؤكد ذلك، ثم إنّ فضل الله سبحانه وكرمه لا يُحَدّ، ومن سأل الله سبحانه لم يعدم جواباً يقيناً.

ومن غموضها أنّ المرء لا يأمن لنفسه من خصلة سيئة يخفيها عن نفسه ويغض النظر عنها، ومن سلوك خاطئ لا يكتشفه كما يجد ذلك من الآخرين، وقد يفاجأ بها بعد هذه الحياة.

وكذلك قد يقع المرء في الشبهات التي تشبه الحق وهي في حقيقتها باطل تلبّس بلبوس الحق، يرفع علمها الطالبون للدنيا بغير حقها ويموّهون على الآخرين فيها ويفتنونهم عن الصراط المستقيم، وهذه الشبهات منتشرة إن كان في أصل الدين الحق وما اصطنع في مقابله من الأديان الباطلة التي تموّه بعضها برسالات حقيقية ثم تحريفها أو كان في الاتجاه والمذهب الحق في ضمن الدين، أو كان في شأن الأمور السياسية والاجتماعية الكبرى التي توجب الفتنة وتراق فيها الدماء وتستباح

الأعراض والأموال، وكم من امرئ لم يثبت في أمر حق تثبُّته وقع في الفتنة وضلّ عن السبيل.

والحقيقة الثالثة: هي الرسالة والرسول.

أما الرسالة: فهي خطاب نصي من الله سبحانه يخاطب به كل إنسان من خلقه دون تفاوت يبين الله سبحانه فيها صفاته ومخلوقاته وسننه في الكون والكائنات ويستنطق فيها هذا الكون وما فيه عن آيات عظمته وقدرته وإبداعه، ويكشف فيها الغطاء عن قصة خلق الإنسان وحقيقة وجود الإنسان وغايته سبحانه من خلقه، ويبيّن كون هذه الحياة ساحة اختبار ومضمار سباق لحياةٍ خالدةٍ مِن بعدها، وبذلك فهو يشير إلى آفاق واسعة ومناحٍ غامضة لا تنتهي كما وصفناه.

وأما الرسول: فله صفات أبرزها صفتان:

إحداهما: أنّه حامل أمين لهذه الرسالة، رغم الظروف والتحديات التي واجهته، وهو أمثل الناس في مؤهلات حمل الرسالة كلها.

وقد وصفه الله سبحانه في القرآن الكريم بما يدل من جهةٍ على جليل خصاله وصيانته عن الخطيئة الآثمة كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، ومن

---

(١) سورة القلم: آية ٤.

ذلك قرنه بالله سبحانه في نيف وثلاثين معنى، مثل الطاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[١].

كما أنّه من جهة أخرى ذكره بما ينفي عنه الغلو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾[٢]، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٣]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٤]، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[٥]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٦]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٧]، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٨]، ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[٩]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[١٠]، ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[١]، ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

---

(١) سورة المائدة: آية ٩٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٨.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٢٨.

(٤) سورة طه: آية ١١٤.

(٥) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٦) سورة النساء: آية ١١٣.

(٧) سورة التوبة: آية ٤٣.

(٨) سورة الكهف: آية ٢٣-٢٤.

(٩) سورة الإسراء: آية ٧٤.

(١٠) سورة الأعراف: آية ٢٠٠، وسورة فصلت: آية ٣٦.

الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾[٢]، **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**[٣]، **﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾**[٤]، **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾**[٥]، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

وفي ذلك كله ما يجعله مثلاً أعلى لكل من أراد من بعده أن يكون داعياً إلى الله سبحانه ويتلو هذه الرسالة من بعده.

والصفة الأخرى: أنّه المثل الأعلى للإنسان المؤمن بالدين، كما قال سبحانه: **﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾**[٦]، وذلك في هديه وسمته وخصاله وأخلاقه وسلوكه وخشيته من الله تعالى ومداراته للناس، وكل ذلك يجعل الإنسان أمام مستوى عالٍ يحفزه على مزيد من السعي والجهد والمثابرة للارتقاء.

وهكذا يتضح أنّ طبيعة المضامين التي عُني بها القرآن الكريم لهي ذات آفاق واسعة ورحبة ومساحات غامضة توجب قابلية للإلهام إلى مدى غير محدود.

---

(١) سورة الكهف: آية ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ٣٥.

(٣) سورة القصص: آية ٥٦.

(٤) سورة القيامة: آية ١٦.

(٥) سورة الأحقاف: آية ٣٥.

(٦) سورة الأحزاب: آية ٢١.

وأما العامل الثاني: ـ من عوامل كون النص القرآني ملهماً ـ هو أسلوب أداء القرآن في مقام تعليم الإنسان للمعاني المتقدمة، وذلك أنّ هذا الأسلوب أسلوب بليغ ومثير في إثارة الآفاق الواسعة والأبعاد الغامضة للمعاني والحقائق المنظورة، بفصاحة ألفاظه وبلاغة بيانه بمطابقته لمقتضى الحال والمقام والمخاطَب.

ومن أساليبه:

١-إنّه يرتقي في كل فكرة إلى الأفق العالي الذي تنتمي إليه.

٢-ويشير إلى تعليلها والحكمة فيها إشارة إجمالية مناسبة.

٣-ويستنطق الكون والكائنات عن الله تعالى وصفاته استنطاقاً عميقاً يُعمّق وعي الإنسان في قراءة الكون والحياة.

٤-ويسوق الحوادث مساق الأمثال.

٥-ويعتمد أسلوب: (إياك أعني واسمعي يا جارة).

٦-وينظر في ذكر الصالحين إلى معنى الاستهداء والتأسي.

٧-ويذكر أحوال أمثل الناس وأسوئهم ليعلم المرء محلّه بينهم.

٨-وينتقل من الأمور المادية إلى الأمور المعنوية.

٩-ويقارن بين الأشباه.

١٠-ويذكر القصص النافعة من أحوال السابقين.

١١-وينطلق في تجذير المسائل من الفطرة الإنسانية ليجد الإنسان نور الفطرة وضياءها.

١٢-ويحفز وعي الإنسان وروح التعلم والتبصر والاهتداء والازدياد في المعرفة.

١٣-ويجمّل الفضيلة والنبل في نفس الإنسان كما يقبّح الخطيئة واللوم.

١٤-ويثير في الإنسان روح الحكمة والنظر في سنن الحياة وعواقب الأعمال.

١٥-وينضج في الإنسان دائماً روح الخوف من جهة وروح الأمل والرجاء من جهة أخرى.

١٦-ويبدي اللين والرحمة والرأفة والودّ كما يبدي الحزم والصرامة كلّاً في موضعه.

١٧-ويقرأ الكون والحياة والحوادث من بُعدِها الربوبي الإلهي ليتوازن إدراك الإنسان الذي يشهد بعده المادي المحسوس.

١٨-ويرتقي بالإنسان عن الخلود إلى الأفق الضيق الذي هو فيه إلى أفق التفكير في السماوات والأرض والكائنات كلها حتى ينظر إلى الوجود من أفق مهيمن في هذا الاتجاه عليها.

١٩-ويوجّه الخطاب إلى الإنسان على وجهٍ عابرٍ للزمان والمكان حتى يجد كل إنسان أنّه يخاطب الله سبحانه بهذا الخطاب بعينه.

٢٠-وينتقل بسلاسة من موضوع إلى موضوع ملائم فيخلق بيئة متكاملة مؤثرة في عقل الإنسان ونفسه[١].

ولذلك يستطيع هذا النص البليغ من أنّ يُفهم الإنسان ويذهب به مبالغ بعيدة في الأمور المعنوية والراشدة والفاضلة، ويحفّز فكر الإنسان ويفجّر عواطفه ويشدّ عزائمه.

وهذا جزء من مغزى النصوص الواردة في شأنه مثل ما جاء عنه في نهج البلاغة: من أنّ من أنّ (ظَاهِرُه أَنِيقٌ وبَاطِنُه عَمِيقٌ)[٢]، وإنّ المتقين (أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِه أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ بِه دَوَاءَ دَائِهِمْ)[٣].

وأما العامل الثالث لإلهام النص القرآني فهو شخصية القائل ـ ونعني بها خصائصه ـ فإنّ خصائص الله سبحانه ـ الذي هو صاحب هذا النص الرسالي من العلم المحيط والقدرة التامة والعظمة البالغة والمهابة التي لا توصف بجنب إظهاره الودّ والرحمة والقرب والعناية بالإنسان ـ لها الأثر الكبير في إثارة خواطر

---

(١) لاحظ ما ذكرناه في بلاغة القرآن الكريم في منهج التثبت حول الدين قسم رسالة الله إلى الإنسان.

(٢) نهج البلاغة: ٦١.

(٣) نهج البلاغة: ٣٠٤.

الإنسان وهواجسه ودوافعه في اتجاه مناسب وغير محدود، لما ذكرناه من العلاقة بين شخصية المتكلم وخصائصه وبين مضمون الكلام ومحتواه وأثره.

الأمر الثالث: في إلهام البسملة.

إنّ البسملة تمثّل بمضمونها الحرفي الابتداء بها في قراءة القرآن الكريم كأدب، ولكننا إذا تلوناها وتفاعلنا مع مضمونها وأمعنّا فيها وجدنا أنّها تلهم الإنسان معانٍ جليلة، منها:

١-إنّ البسملة تتضمن أمراً محذوفاً بالقراءة على حد الأمر المصرح به في قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، ويعني ذلك أنّ الإنسان موجَّه إلى قراءة هذا النص من قائله وهو الله سبحانه مما يعطي أنّ الله تعالى هو الذي دعا الإنسان إلى أن يذكره ويتوجه إليه بهذه المعاني، ثم إنّ المقروء أيضاً هو كلام الله سبحانه ورسالته إلى الإنسان، ومعنى ذلك أنّ الإنسان مأمور بأن يتلو هذه الرسالة على نفسه، فكأنّ الله تعالى يخاطبه بها.

وفي هذا المعنى ما يلهم الإنسان شعوراً بقرب الله سبحانه منه، وكذلك يشعره بعنايته سبحانه به وتعهده له بما جاء في السورة من رحمته به وعنايته (ربوبيته) به واستجابته تعالى له فيما حثه عليه من الاستعانة به والاستهداء منه.

وقد يكون من أبعاد الأمر بالقراءة باسم الله سبحانه ثم حمد الله تعالى وإظهار الخضوع والأدب والافتقار إليه تعليمُ الإنسان أسلوب مخاطبة الإله والتأدب معه والثناء عليه وذكره وإظهار الحاجة إليه والحوائج التي ينبغي أن يهتم بها وأهمها الاهتداء إلى الصراط المستقيم في هذه الحياة والثبات عليه واقتفاء هدي الذين أنعم

الله تعالى عليهم بالهداية من قبل من الأنبياء والصالحين، وفي ذلك وقاية للإنسان عن مزالق يقع فيها إن هو استبدّ في شأن هذه الأمور كما وقع فيه بعض من ينتسب إلى التصوف والعرفان النظري في بعض مناهجه حيث زلّوا فيما استبدوا به حتى وقعوا في أخطاء خطيرة في التنظير والفكر والسلوك، وذلك على الإجمال أمر مشهود.

٢-إنّ البسملة التي يفتتح الإنسان بها القول أو العمل تلهم الإنسان أنّ الأمور من الله سبحانه، فمنه كانت البداية وتكون، فهو منشأ هذا الكون والمشهد والإنسان، وتلهم الإنسان برؤية ربانية للكون والحياة، وتكشف الغطاء عن البعد الباطن فيه الذي يرتبط من خلاله كل شيء بالله سبحانه واسمه.

٣-إنّ البسملة بتركيزها على اسم الله سبحانه تثير في الإنسان الشعور بأنّ هذا الاسم هو الاسم الأعظم في الوجود كله، لأنّ كل اسم يحمل خصائص مسماه المعروفة، وتمثّل شخصيته، فاسم الله سبحانه يحكي عن الذات الإلهية العظيمة الذي هو الصانع والمخطط والمبدع للكون والكائنات جميعاً، فهو خالق الأرض التي يعيش الإنسان عليها ويستمتع بنعمها ودفائنها، وخالق السماوات وما تشتمل عليه من كواكب ونجوم ومجرات والتي تجعل الإنسان متحيراً مما يتمثل فيها من جلال وعظمة وإبداع، إنّه اسمٌ مقرون بالأشياء كلها، وكأنّه منقوش عليها، وكأنّها في استمدادها منه وخضوعها وانقيادها له تسبّح به وتلهج بذكره، كما قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[١]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٢].

وإذا كان الإنسان يجد شغفاً في اسمٍ ما لما يجده في مسماه من كمال ومعانٍ يتعلق بها فإنّ اسم الله سبحانه لهو الأولى في أن يُشغف به الإنسان لو ارتقت مداركه واتسعت آفاقه وعلا طموحه ولم تحجبه البيئة اللاهية لهذه الحياة عمّا وراءها، بل تأمّل في ملكوت الأشياء وبواطنها وما يكمن وراءها من عظمة وقدرة وإبداع، ويجد حقاً ما جاء في القرآن الكريم: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣].

هذا، ومن أبعاد ذكر اسم الله تعالى والتركيز عليه أنّه ليس لله سبحانه اسم دون اسم، فله الأسماء الحسنى كلها التي تعبّر عن التفرد بالعلم المحيط والقدرة البالغة والإبداع غير المتناهي والقيم العليا من الكرم والفضل والرحمة والودّ واللطف وكل معنى باهر ومذهل، وكل ما يجده الإنسان في غيره من كمال فهو فيض منه، على أنّه أمر لا يُذكر في جنب كماله وعظمته جلّ شأنه.

٤-إنّ ما اشتملت عليه آية البسملة من الوصف المؤكد لله تعالى بالرحمة معنى لطيف وملهم للغاية، لأنّه جعل مدخل كلامه مع الناس مدخل الرحمة وخصّ هذه الصفة بذكرها ليقبل الإنسان على الله تعالى بالأمل والرجاء والتوبة، ويستعينه

---

(١) سورة النحل: آية ٤٩.

(٢) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٣) سورة الرحمن: آية ٧٨.

ويستهديه ويعرض عن الشرك به، ويأتي بالبسملة على وجه الاسترحام منه، فهو يستلهم هذه المعاني وتترسخ في عقله وقلبه ونفسه، وتترك تأثيرها في رؤيته وخصاله ودوافعه.

فهذا بعض ما تلهمه البسملة في نفس من يتلوها إذا استشعر اتجاهها وملكته أجوائها.